مذاهب وشخصيات

حفيدة الرسول

نفحات من سيرة السيدة زينب

بقلم

أحمد الشرباصي

مذاهب وشخصيات

حفيدة الرسول

نفحات من سيرة السيدة زينب

بقلم
أحمد الشرباصي

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله تبارك وتعالى ، ونصلِّي ونسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وأتباعه ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، ونستفتح بالذى هو خير ، « رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قبس من كتاب الله

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ، أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللهُ ؟ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ، وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ . ذٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ » .

« سورة الشورى »

الإهـــــــداء

إلى الذين يدعون ربَّهم قائلين : اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتِّباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

إلى المؤمنين القانتين الداعين ربهم قائلين : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » .

إلى الذين يعبدون خالقهم ، ويتبعون نبيهم ، ويحبون آله الطيبين الطاهرين ، ويعبرون عن هذا الحب بالقول الطيب ، والعمل الصالح ، والاقتداء الكريم .

إلى هؤلاء أهدى هذه الصفحات .

تصدير

هذه نفحة من نفحات البتول الطاهرة ، السيدة زينب رضى الله عنها ، فرع تلك الدوحة المحمدية التى بارك الله تعالى فيها ، وأنبتها أحسن نبات ، وزكَّاها أسمى تزكية ، وطهرها بفضله تطهيراً ، وجعلها شجرةً مباركةً طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها جل جلاله ، فتهدى من ضلال ، وتجمع من فُرقة ، وتشع على العالمين بالضياء ، وتهديهم طريق السناء ! . .

أضعها أمام أولئك الأوفياء البصراء العقلاء الذين تمتلىء قلوبهم حبًّا لرسول الله تبارك وتعالى وآل بيته الأكرمين ، عليه وعليهم صلوات ربهم وسلامه أجمعين ، ويريدون أن يجدوا الوسيلة السليمة التى يعبرون بها عن ذلك الحب العميق ، لعلهم يجدون فيها نبراساً يدلهم على ذلك الطريق ! !

هذا ولقد كنت سطرت تلك الكلمات منذ ثمانية عشر عاماً ، ثم رجعت إليها اليوم أعيد فيها النظر ، وأجيل فى كلماتها القلم ، مع تعجل وتخفف ، راجياً أن تسعى إلى قرائها فى ثوب جديد ، إن لم يتم له الجمال فحسبه حسن النية وخلوص الطوية ، « وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ » .

احمد الشرباصى

مقدمة

سُبْحانكَ اللَّهم ، أنْت « مالكُ المُلْك ، تُؤْتِي المُلْكَ من تَشاءَ ، وَتنْزِعُ المُلْكَ مِمَّن تشاء ، وتُعِزُّ مَنْ تشاءَ ، وتُذِلُّ مَنْ تشاءَ ، بيَدِك الْخَيْرُ ، إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ، وتُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الحيِّ ، وَتَرْزُقُ مَنْ تشاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ »[1] . سبحانك سبحانك ! خلقت الخلق ، وأجريت الرزق ، وجعلت الناس أمماً وشعوباً ، وطوائف وألواناً ، لا لتفرقة أو تشاحن ، بل لتعارف وتعاون ، ولا فضل لأحد عندك إلا بالتقوى ، وما الحسب والنسب ، والقرابة والوسيلة ، والمال والجاه ، والصغر والكبر ، إلا أعراض عديمة القيمة بجوار العمل الصالح والعقيدة الثابتة : « يأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنا كُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكرَمَكُمْ عِنْدَاللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »[2] ولا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب . . . وأشهد أن لا إله إلا أنت : رب

(١) سورة آل عمران : الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) سورة الحجرات ، آية ١٣ .

الأرباب ، وموجد الأسباب ، وإليك المرجع والمآب ، ومنك الثواب والعقاب ، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك الذى كان يقول لآله : « اعملوا فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا » . ويقول : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ! . . . فعليه صلواتك وتسليماتك ، وآلاؤك وبركاتك ، وعلى آل بيته الرفيع الجناب ، وأصحابه أولى الحكمة وفصل الخطاب ، ومن دعا بدعوته ، وسار على طريقته ، وانتظم فى كتيبته ، واستن بسنته ، واستمسك أبشريعته ، أولئك الذين هداهم الله ، فبهداهم اقتده ، وأولئك هم أولو الألباب !.

عـادة الموالـد

اعتاد المصريون المسلمون أن يحتفلوا فى النصف الأول من شهر رجب المبارك فى كل عام بإقامة المولد الزينبى فى حى السيدة زينب بالقاهرة ، فتوجَّه الدعوات ، وتجهَّز المعدات ، وتنصب السرادقات ، وتنشر الرايات ، وتعقد الحلقات ، وتجمع النذور ، وتوزع الصدقات ، وتلقى الدروس والعظات ، والخطب والمحاضرات ، ما بين دينية وتاريخية واجتماعية ، وتشترك الهيئات الإسلامية بنصيبها فى ذلك الاحتفال . وتقبل ألوف الفلاحين والمريدين من أقصى البلاد وأدناها ، ليشهدوا ذلك المهرجانَ الطويل الحافل المجموع له الناس من كل حدب وصوب ، فأنت ترى فيه الأطفال والغلمان والفتيان والشبان ، والرجال والكهول والشيوخ ، كما ترى الفتيات والآنسات والسيدات والعجائز . كل أولئك قد جاءوا من قريب أو بعيد ليأخذوا نصيبهم من الاحتفال ، مع اختلاف وتفاوت فى العناية والاهتمام ! . .

ولمثل هذه المواسم الدينية، والموالد التى تتصل بذكريات الأسرة النبوية المحمدية ، وأمجاد تاريخها الرائع ، ومفاخر أيامها الباقية ، منافعها وفوائدها ومزاياها — وإن كانت تقليداً مبتدعاً فى عصور

متأخرة عن الصدر الإسلامى الأول — فهى لون من الوفاء لآل بيت الرسول الكريم عليه وعليهم الصلاة والتسليم ، وهى ذكرى قد تنبه الغافلين من المسلمين ، وهى فرصة لاستعراض صفحات من التاريخ الإسلامى الحافل بالعبر والعظات والبطولات ، وهو ميدان صالح لتقديم القربات وفعل الخيرات ، والعطف على الفقراء والمساكين .

وهى مناسبة كريمة قد تنفع فيها التوبة ، ويقبل فيها رجاء الغفران ، خصوصاً حينما تفيض من هذه الجموع المسلمة أنوارُ الإنابة والخشوع والإيمان ، وتستيقظ فيهم بعوامل التذكير والاعتبار والاجتماع عواطفُ الخير ونوازع الإحسان ، وقد تكون كذلك وسيلةً من وسائل التعارف والإخاء ، أو النصيحة والإرشاد ، وهى أخيراً نوع من عاداتنا وتقاليدنا الإسلامية التى تربطنا بتراث الإسلام برباط وثيق أو رقيق ! ! . .

منكرات الموالد

ولكن — وليت القول كان خاليا من « ولكن » هذه ! — ولكن ! . . ليت الأمر كان خيراً كله ، وليتنا كنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ويستقيمون على الجادَّة ، فلا يميلون ولا يضطربون ، أو ممن يختارون عند مفترق الطرق سبيل الرشاد ، ويحذرون مهاوى الفساد ! . وليت هذه المواسم وتلك الموالد خلص لها خيرُها ومزاياها ، وتحرزت عن شرها وخطاياها ! . . .

إذن لأيدناها كلّها بما استطعنا ، ولطلبنا منها المزيد والمزيد ، ولكن الواقع المشاهَد ينادى بأنها أخلاط وأمشاج ، وأن شرها المتكاثر يكاد يطغى على خيرها المتضائل . .

نعم ! . . فما زالت الجرائم الخلقية والمادية كثيرة وسط الزحام الذى يشتد فى أثناء هذه الموالد ، والذى يختلط فيه الحابل بالنابل ، والصالح بالطالح ، والنساء بالرجال ، والأطهار بالأنذال ، وبعض النساء يملن إلى التهتك والفجور ، والشبان كدأبهم فى الخلاعة والمجون . والنذور كثيرة سخية ، ولكنها فى الغالب تذهب إلى غير المستحقين ممن يسيطرون أو يشرفون ، والأعمال البهلوانية والشطحات الادعائية توصف بأنها عبادة واستغفار ، أو تصوف

واستغراق ، والدجل والشعوذة تجارة رابحة للمأفونين من المتظاهرين بالتقوى والصلاح :

لا تخدعنْك اللِّحى ولا الصورُ   تسعة أعشار من ترى بقرُ
تراهمو كالجـــراد منتشرا   وليس فيه لطالب وطر !
في شجر السرو منهم مَثَلٌ   له رواء ، وما له ثمـــر !

ولقد سئل ابن المبارك : من الناس ؟ . فقال : العلماء ! (يعنى العاملين بعلمهم) . قيل : فمن الملوك ؟ . قال : الزهاد ! (والغِنَى هو القناعة) قيل : فمن السفلة ؟ . قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين ! ! . .

ولله در الذى يقول :

ليس التصوف لبسَ الصوف والخلق
بل التصوف حسنُ السمت والخلقِ
فالبس من اللبس ما تختار أنت ، وقم
جنحَ الظلام ، وأَجْرِ الدمعَ بالغسق
فـــرب لابس للديباج يشـــغله
حبُّ الذى خلق الإنسان من علق
وكم فتى لا للخيش تحســـبه
ينجو ، وذلك عند العارفين شَقى

فإن ذلك لم يحجبـــه ملبسه
وذا مع الدمع مأسور فلم يفق

* * *

وكثير من الناس يخطئون خطأ فاحشا ، ويغربون إغراباً فاسداً فى تفسير « الشفاعة » وفهم « الوسيلة » ، فهم يهملون الأسباب ، ويفرِّطون فى الأعمال ، وينسون الواجبات ، ويثقلون كواهلهم بالموبقات ، ويسودون صحائفَهم بالدنس والرجس ، والخبث والمنـكرات .

ثم ينتهزون فرصة هذه الموالد وتلك المواسم ليرددوا فيها حزباً ، أو يتظاهروا بتوبة ، أو يهمهموا بكلمة ، أو يشتركوا فى حلقة ذكر ، أو يطوفوا بضريح ولى ، ظانين أن فى هذا وحده النجاة والتطهير والتـكفير ، بل وزيادة الحسنات ومضاعفة الأجر والثواب . .

وليت الأمر يقف عند هذا ، بل هم يأتون من الأعمال الشبيهة بالوثنية ، والمظاهر التى تذكر بالإشراك مالا يطيقه المؤمن الحليم ، فتراهم يتمسحون بالأضرحة ، ويطوفون حولها خاشعين خاضعين كأنها الـكعبة الحرام ، ويلثمون ستائرها وكأنها ستائر عرش ربك ، ويلصقون صدورهم بأبوابها وحديدها ونحاسها كأنها الملجأ الواقى من السعير ، ويلصقون خدودهم بعتباتها ، ويعفرون وجوههم

بترابها ، ويعلقون الخير والشر ، والثواب والعقاب برضا ساكني هذه القبور وإرادتهم .

وكثيراً ما يطلبون منهم — وهم أموات وعباد من عباد الله تعالى — أن يقضوا لهم الحاجات ، ويحققوا الرغبات ، كأنهم آلهة أو أرباب ، ويا ويلك إذا ما جئت هؤلاء وجابهتهم باعتراض أو إرشاد ! .

حقا ، إنهم قد ضعفوا عن الاستقامة والعمل ، فلجئوا إلى هذا البهتان ، وبئس السبيل ! ! . .

فضل آل البيت والأولياء

إننا لا ننكر ما لأولئك السادة من آل البيت النبوى الكريم الطاهر ، وما للأولياء من فضل ومنزلة ، ورتبة ومكانة ، فهم مصابيح الهدى وأعلام التقى ، وهم المقربون من ربهم ، الأَدْنَونَ من نبيهم ، العاملون بكتابهم ، المستجاب دعاؤهم ، الذين رضوا عن الله فرضى الله عنهم .

ونحن نعلم أن الإمام البخارى قد روى عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قوله : « لكل شىء أساس ، وأَساس الإسلام حب أصحابى وأهل بيتى » وأخرج الإمام مسلم عن زيد بن أرقم قوله : « أذكركم اللهَ فى أهل بيتى » .

ولكن الحب لا يكون كلاما يردد ، أو زورة تؤدَّى ، أو طوافا بضريح ، أو تفضيلا لبقعة على بقعة ، أو رجاء من ميت ، أو استغاثة بمقبور ، أو التجاء إلى إنسان مقهور عبدٍ لله مهما كان كريماً مقربا ! .

والإسراف فى الاعتماد والتوكل على غير الله هو ما يفضى بالناس إلى الإشراك والكفران .

وأوقن أن أولئك الأولياء الصالحين لو بُعثوا من قبورهم لما رضوا عن هذه المنكرات والمآثم التي ترتكب باسمهم، وتُنسب إليهم وهم منها براء، وكيف يرضى هؤلاء الأولياء الأكرمون عن كسلكم وسفهكم أيها الضالون[1] وهم قد عمروا دنياهم بالعمل الدائب والجهاد المتواصل، وهم الذين كانت تقبل عليهم الدنيا بذهبها وفضتها وأعراضها وزينتها، عن طريق الهدية أو الصدقة أو الإحسان أو الصنيعة أو الهبة من ملك أو خليفة أو أمير، فتأبى نفوسهم، وتترفع هممهم، وتعلو عزائمهم عن هذا الصَّغار، ولا يطلبون إلا من ربهم، ولا يكسبون قُوتَهم إلا من عرق جبينهم.

ومن قبلهم كانت كتائب الأنبياء والمرسلين لهم نوراً وإماما، فهم صلوات الله عليهم وسلامه لم يسألوا أتباعهم على الدين رزقا أو أجراً، ولو أرادوا شيئاً من ذلك لحمل إليهم أتباعُهم كلَّ مافى أيديهم من مال وعقار !!

بل نراهم قد عملوا بأيديهم، فزرعوا الأرض، ورَعَوُا الغنم، واشتغلوا بالتجارة، ونسجو الثياب، واحترفوا غير ذلك من الحرف، ولم يعتمدوا إلا على خالق الأرض والسموات، ولم يدخروا إلا صالح الأعمال والقربات، لأنهم يعلمون كل العلم أن الله لا يقبل

---

(١) إنما نقصد الفئة الضالة وحدها، وهناك كثيرون مهتدون بهدى الله المبين.

وساطة أو محسوبية أو قرابة فى عفوه عن ملحد كفور، أو ختار جبار .

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »[1] .

(١) سورة التوبة ، آية ١٠٥ .

كلٌّ مجزى بعمله

ليتهم يتدبرون مع المتدبرين ما رُوى عن « زياد » ، فقد أخذ رجلا من الخوارج فحبسه ، ثم أفلت منه ، فأخذ بدله أخا له وسجنه ، وهدده قائلا : إن جئتني بأخيك أطلقت سراحك ، وإلا ضربت عنقك ! .

فقال له الرجل : إن جئتك بكتاب من أمير المؤمنين يذكر لك فيه أني برىء لا ذنب لى ، أفتطلق سراحى ؟ . قال زياد : نعم ! .

فقال الرجل : فأنا آتيك بكتاب من العزيز الرحيم — وهو أكرم منى ومنك ومن أمير المؤمنين — وأقيم عليه شاهدين ، هما إبراهيم وموسى عليهما السلام : يقول الحق تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : « أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى[1] ، وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى[2] » ! . فقال زياد : خلوا سبيله ، فهذا رجل قد لُقِّنَ حجته ! ! . .

---

(١) أى لا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى ، فلكل امرىء شأن يغنيه ، وكل مسئول عن نفسه .

(٢) سورة النجم ، آية ٣٦ — ٤١ .

ومعنى هذا أن كل إنسان مسئول عن عمله فقط ، لا يحمل عن غيره ثقلا ولا حملا ، ولا ينفع سواه يوم تتقطع الأسباب ، وتتجاهل الأحباب ، وتضيع الأنساب : « يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ[1] » ، « فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ[2] » ! ! ...

ولقد خاصم أبو العتاهية رجلا علويا ينتسب إلى آل بيت الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فقال له العلوى : كيف تخاصمنى وأنت تقول فى دعائك وصلواتك : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، وأنا من آل محمد ؟ . فقال له أبو العتاهية : إنى أقول « الطيبين الطاهرين » ولستَ منهم ! . .

فاستطاع أبو العتاهية بذلك أن يُفحمه ، لأن القرابة من الطيبين شىء ، والعمل بهديهم شىء آخر ، ولو اتكل الأنبياء على منازلهم من ربهم لناموا ملء أعينهم ، ولهوا طول حياتهم ، ولكنهم على العكس من ذلك كانوا أخوف الناس من الله ، وأشدهم نَصَباً فى طاعته ، وصدق الذى قال : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » ... وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم ! . .

---

(١) سورة الشعراء ، آية ٨٩ .

(٢) سورة عبس ، آية ٣٣ — ٣٧ .

ومهما كنتَ عظيما وخانتك التقوى فأنت لدى ميزان ربك خالى الوفاض بادى الأنفاض ، تستحق الطرد والإبعاد . ومهما تعاليت فى التمدح بالجاه والحسب ، والشرف والنسب ، فأنت فى الحضيض ، ما لم تشرفك فضائلُك ، وترفعك كرائمك ، ولقد وقف معاوية يوما على المنبر فقال :

« أيها الناس : إن الله فضَّل قريشا بثلاث ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ[1]) ونحن عشيرته الأقربون ، وقال تعالى : (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ[2]) ، ونحن قومه ، وقال عز وجل : (لإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ ، رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ[3]) ونحن قريش » ! .

قال معاوية ذلك مفتخرا مزهوا ، وظن أنه بلغ الغاية ، وأوفى على النهاية ، وأفحم السامعين ، ورد كيد الشامتين . وكسب بهذا الكلام كلَّ الأمجاد والمفاخر له ولقومه .

ولكن رجلا من الأنصار خبيراً بالحقائق ، عليما بالجدال والحوار ، قام من بين السامعين ، وقال له : على رِسْلك يا معاوية ، فإن الله تعالى قال : « وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ[4] » وأنتم

---

(١) سورة الشعراء ، آية ٢١٤ .
(٢) سورة الزخرف ، آية ٤٤ .
(٣) سورة قريش ، آية ١و٢ .
(٤) سورة الأنعام ، آية ٦٦ .

قومه . وقال عزّ من قائل : « وَلمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ[1] » ، وأنتم قومه وقال : « وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرآنَ مَهْجُورًا[2] » وأنتم قومه ، فهذه ثلاث بثلاث ، ولو زدت لزدناك ! . فلم يعرف معاوية جواباً ، فظل صامتا صمت العاجزين ! . .

ومعنى هذا أنه يجب على الإنسان ألا يفخر بنسبه وأصله ، بل له أن يفخر بجهاده وعمله :

لسنا وإن أحسابنا كرمت   يوما على الآباء نتكلُ
نبني كما كانت أوائلنا   تبني ، ونفعل مثلما فعلوا !

* * *

بل إن أهل البيت وأتباعهم مطالبون بأن يكونوا سباقين إلى المحامد والمكارم ، يضاعفون القربات ، ويبالغون فى العبادات ، حتى لقد رُوى عن زين العابدين رضى الله عنه أن رجلا قال له : إنكم أهل بيت مغفور لكم ! . . فغضب زين العابدين ، وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله تعالى فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم من أن نكون كما تقول ؛ إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ، ولمسيئنا ضِعْفين .

ثم تلا قوله تعالى : « يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ

---

(١) سورة الزخرف ، آية ٥٧ .
(٢) سورة الفرقان ، آية ٣٠ .

مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا[1] » !.

فمتى يتخلص الناس إذن من هذه الآفات العقيدية والمظاهر الوثنية، ومتى يخلصون الدين لله وحده ؟ ومتى يفردونه بالعبادة والدعاء ؟ ومتى يخففون من غلوائهم فى تفضيل الأمكنة، وتقديس الأضرحة، والاتكال على الأموات ؟ . . .

ألا إن مهمة الإسلام هى حطم الأصنام، ونشر لواء التوحيد في كل مكان. ولذلك حارب الإسلام كل لون من ألوان الإشراك، وكل صورة من صور الوثنية. وكل حال من أحوال الانصراف والاعتماد على غير الله : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ[2] »، « قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ[3] »، « إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ[4] »،

---

(١) سورة الأحزاب، آية ٣٠ . (٢) سورة البينة، آية ٥و٦ .
(٣) سورة الأنعام، آية ١٦٢، ١٦٣ . (٤) سورة الأنعام، آية ٧٩ .

« ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[1] » ، « وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ[2] » !.

***

إن هؤلاء الناس مثلا يحتفلون كل عام بمولد الطاهرة المطهرة التقية النقية ، السيدة زينب رضى الله تعالى عنها وأرضاها ، وأنزلها منازل الأبرار والأخيار ، فهل عرفوا مَن السيدة زينب فى طهارتها وسموها وعلاها ؟. وهل عرفوا من هى فى شجاعتها وحرصها على الحق ودفاعها عن حوزته ؟. وهل قرءوا تاريخها ، واستعرضوا مواقفها ؟. وهل تبصروا وتدبروا فى صفاتها وأخلاقها ؟. وهل حاولوا التشبه بها فى جلالها وكمالها ؟. وهل راعَوْا حرمتها . وحرمة جدها الأعظم صلى الله عليه وسلم يوم احتفلوا بذكراها ، فتجنبوا ما يسيئها ويؤلمها من القبائح والدنيات ، وأتوا ما يرضيها ويُرضى ربَّها من الصالحات والقربات ؟..

سبحانك اللهم وغفرانك ، ومعذرةً إليك يا رسول الله ثم معذرة ، فما أكثر ما يرتكبه بعض الناس من السيئات . وينسبونه زوراً وبهتانا إلى محبتك ومحبة أهلك ، وأنت لا ترضى عن كثير مما يعملون ، ولا يرضى عنه أحدٌ من أهلك ، فأنت الذى تقول : « سحقاً سحقاً لمن غيَّر بعدى » !.. وقد أذهب الله الرجس عن أسرتك وذريتك ، وطهرهم تطهيرا !..

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٨ . (٢) سورة الأنعام ، آية ١٢٦ .

من هى السيدة زينب ؟

أيها الناس ! . . .

اعلموا إن كنتم لا تعلمون أنها زينب بنت أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، ورضى الله عنه ، أول من أسلم من الفتيان ، وماحق الكفر والبهتان ، وناصر اليقين والإيمان ، بالسيف والسنان ، والقلب والبيان ، والذى أحبه الله ورسوله ، وأحب الله ورسوله ، والذى كان من النبي بمنزلة هارون من موسى ، وإن لم تكن هناك نبوة بعد محمد ! . . .

وأمها فاطمة البتول الزهراء[1] بنت رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، وأحب الناس إلى رسول الله ، وأفضل نساء الدنيا ، وسيدة نساء الجنة فى الآخرة ، والتى قال فيها رسول الله : « فاطمة بضعة منى فمن أغضبها أغضبنى » .

وجدها هو أفضل المرسلين ، وسيد النبيين ، وخير العالمين على الإطلاق .

---

(١) الزهراء : المرأة المشرقة الوجه ، والبتول : المنقطعة عن الرجال ، ومريم العذراء رضى الله عنها كالبتيل ، وفاطمة بنت سيد المرسلين عليهما الصلاة والسلام ، لانقطاعها عن نساء زمانها ونساء الأمة فضلا ودينا وحسبا ، والمنقطعة عن الدنيا إلى الله تعالى .. وتبتل إلى الله وبتل : انقطع وأخلص ، أو ترك النكاح وزهد فيه . « القاموس المحيط » .

وشقيقاها الحسن منقذ الأمة من الفرقة ، والحسين سبط الرسول وأبو الشهداء ، وسيد شباب أهل الجنة عليه السلام .

وقد وُلدت زينب رضى الله عنها وأرضاها فى شعبان من السنة الخامسة للهجرة ، بعد ميلاد أخيها سبط الرسول وحبيبه الحسين بسنتين ، وشهدت من حياة الرسول خمس سنوات ، فشملها بجلال النبوة ، ونور الحكمة ، وأرضعها لبان الإسلام ، وغذاها بأكف الحق . .

وورثت عن أبيها البطل المغوار وسيف الله الغالب صفةَ الشجاعة والإقدام ، والفصاحة والبلاغة ، حتى لقد روى الجاحظ عن خزيمة الأسدى أنه قال : دخلت الكوفة بعد مقتل الحسين ، فرأيت زينب بنت على ، فلم أر والله خَفِرة أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين على بن أبى طالب ! .

ثم ساق لها كلاماً استشهد به على ما قال ، وقد يعربك هذا الكلام فيما يُستقبل من هذا البحث عند الحديث عن مواقفها مع يزيد وشيعته .

وورثت عن أمها فاطمة الزهراء العفافَ والتقى ، والطهارة والهدى ، وورثت عن شقيقها الحسين حبَّ التضحية ، والفناء فى سبيل العقيدة والمبدأ ، والحرص على الاستشهاد وصدق الجهاد :

« ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »(١) ! . .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٣٤ .

وكيف لا تكون كذلك وهى من تلك العشيرة الفريدة الطاهرة التى يقول فيها الفرزدق :

من معشر حبُّهم فرضٌ ، وبغضُهم
كفر ، وقربهم منجي ومعتصم
لا ينقص العسر بسطا من أكفهم
سيان ذلك ، إن أثروا ، وإن عدموا
يأبى لهم أن يحل الذم ساحتهم
خِيمٌ كريم ، وأيدٍ بالندى دِيَم[1]
يُستدفع السوء والبلوى بحبهم
ويُستزاد به الإحسان والنعم
مقدَّم بعد ذكر الله ذكرهم
فى كل بدء ، ومختوم به الكلم
إن عُدَّ أهلُ التقي كانوا أئمتهم
أوقيل : من خيرُ أهل الأرض ؟ قيل : هم !
لايستطيع جواد بُعْدَ غايتهم
ولا يدانيهم قـــومٌ وإن كرمـــوا
هم الغيوث إذا ما أزمة أَزِمَت
والأُسد أُسدُ الشَّرى[2]، والبأس محتدم

---

(١) الخيم : الطبع . وديم : جمع ديمة ، وهى السحابة الممتلئة بالمطر ، يشبه أيديهم بها .
(٢) الشرى : طريق كثيرة الأسود ، وبقعة بتهامة كثيرة السباع . (القاموس) .

وكيف لا تكون كذلك وهي فرع من عترة الرسول
وسلالته التى يقول فيها الآخر :

مطهرون نقياتٌ جيوبهم
تجرى الصلاة عليهم أينما ذُكروا
من لم يكن علويا حين تنسبه
فما له فى قديم الدهر مفتخر
الله لما برا خلقا فأتقنه
صفاكم واصطفاكم أيها البشر
فأنتم الملأ الأعلى ، وعندكم
علم الكتاب وما جاءت به السور

زواجهـــــا

ولما نما عودها أفضل نماء ، وزكا نباتها الطيب فى روضة النبوة ودوحة الرسالة ، وجمَّلها ربها بدناً وروحاً ، وطبعاً وخلقاً ، تزوجت من ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وعبدُ الله بن جعفر هذا هو الصحابى الجليل ، والمسلم السباق إلى المكرمات ، الذى وُلد بأرض الحبشة حين الهجرة الأولى ، وهو أول مولود وُلد بها فى الإسلام ، وتوفى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وعمره عشر سنوات ، وكان مضرب المثل فى الجود والحلم والكرم ، وعمِّر ما يقرب من تسعين عاما .

ولما مات سنة ثمانين للهجرة بالمدينة حضر جنازته أبان بن عثمان أمير عبد الملك بن مروان على المدينة المنورة ، فحضر غسلَه وتكفينه ، وما فارقه حتى دفنه فى « البقيع » ، وإن دموعه لتسيل على خديه ، وهو يقول : كنتَ والله خيراً لا شر فيك ، وكنت والله شريفاً واصلاً براً ! . .

وجعفر هو أبو عبد الله جعفر بن أبى طالب الطيار[1] فى الجنة ،

---

(١) لقب بالطيار لما روى عن عكرمة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت الجنة البارحة ، فرأيت جعفرا يطير مع الملائكة ، وجناحاه مضرجان بالدم » .

ذو الهجرتين ، وذو الجناحين ، وأبو المساكين ، والذى قال له رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أشبهت خَلقى وخُلُقى[1] » ، والذى قال فيه أبو هريرة : « ما احتذي النعالَ ، ولا ركب المطايا ، ولا ركب الكُور (الرَّحْل) بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جعفر بن أبى طالب » ؛ والذى استشهد خير استشهاد فى غزوة « مؤتة » من أرض الشام ، فى جمادى سنة ثمان من الهجرة ، بعد أن حمل اللواء ، فقُطعت يداه ، فأبدله الله جناحين ، يطير بهما فى الجنة .

ولقد رووا أنه خرج إلى الجهاد على فرس له شقراء ، ثم اشتد القتال ، وحمى الوطيس ، فعقر فرسه ، وقاتل حتى قُتل وهو ينشد :

يا حبذا الجنةُ واقترابُها طيبةٌ وباردٌ شرابُها
والروم روم قد دنا عذابُها على إن لاقيتُها ضرابُها

ولقد التمسوه بعد استشهاده فوجدوا فى جسمه بضعا وسبعين طعنة ورمية ! .. ولما بلغ نعيهُ إلى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه رؤى الحزنُ فى وجهه ، وذرفت عيناه الدموع ، ودخل على امرأته أسماء بنت عميس فعزاها فيه ، وقال عنه النبي لابنه عبد الله مواسياً ومخففاً : « هنيئاً لك ، أبوك يطير مع الملائكة فى السماء » !

---

(۱) قال العراقى : « هذا اللفظ لجعفر بن أبى طالب كما هو متفق عليه من حديث البراء ، ولكن الحسن أيضا كان يشبه النبى صلى الله عليه وسلم ، كما هو متفق عليه من حديث أبى جحيفة . وللترمذى وصححه ، وابن حبان من حديث أنس : « لم يكن أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحسن » .

وقال عنه أَبو هريرة رضى الله عنه : « ماوطىء التراب أَحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جعفر » ! ! . .

تزوجت السيدة زينب من ابن عمها هذا فكانت مع زوجها أَكملَ سيدة ضمتها أَهنأُ دار ، وكان لها منه أولاد ذكور وإناث ، ملأوا الدنيا نوراً وفضلاً ، بنسلهم وذريتهم وأَعقابهم ، وهؤلاء الأولاد هم : على ، ومحمد ، وعباس ، وعون وأُم كلثوم ، وأُم عبد الله . وبعضُهم مات فى أَول حياته ، وبعضهم عُمِّر وأَنجب .

صفاتها

كانت رضى الله عنها وأرضاها محمودةً من كل ناحية ، مذكورةً في كل باب من أبواب المديح والثناء ، يُضرب بها المثل في كثير من صفات العقائل المخدَّرات ، والسيدات الشهيرات في التاريخ . فلها من جمالها أكبر نصيب ، حتى لقد وُصفت بأن لها وجها كأنه شقة قمر ، ولها من جودها وكرمها ، وعلمها وفضلها ، وجرأتها وإقدامها ، وتضحيتها وبذلها ، وبلاغتها وتأثيرها ، وأدبها وفكرها ؛ لها من كل هذا لسانُ صدقٍ يرفعها إلى قمة المجد حين تتسابق الأتراب ، وتتفاضل خرائد البيوتات ! . . .

وكانت رضى الله عنها محدِّثةً قارئة ، حدَّثت عن أمها فاطمة بُضعة رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، وعن أسماء بنت عميس ، وَروَى عنها محمد بن عمرو ، وعطاء بن السائب ، وفاطمة بنت أخيها الحسين بن علي ، وكانت أديبةً شاعرة ، استفادت من نشأتها — في ذلك البيت العربي الهاشمي الأصيل في عروبته وملكاته — الكثيرَ من ذكاء الجنان ، وروعة البيان ، وذلاقة اللسان ، ويروى لها من الأشعار قولها :

سهرت أعينٌ، ونامت عيونٌ لأمور تكون أو لا تكونُ

إن رباً كفاك ما كان بالأمـ ـس سيكفيك فى غدٍ ما يكون

فادرأ الهمَّ ما استطعت عن النفـ ـس فحملانك[1] الهمومَ جنون!

(1) حملانك : يعنى حملك .

جهادها مع الحسين

ولما بدأ شقيقها الحسين عليه السلام فى جهاده ضد الغاصبين الظالمين كانت هى فى هذه المعركة الداعيةَ المحركَ للهمم، الباعث للعزائم، وكان لها شأن كبير فى قضيته، إذ شاركته فى رحلته، وقاسمته جهادَه، فكانت تستثير بلسانها حميةَ الأبطال، وتدبر بيمناها ضيافةَ الرجال، وتقضى بيسراها حوائجَ الأطفال، وتقوم على حراسة الرِّحال، وتُسعف الجرحى، وتمرِّض المرضى، وتطعم الجوْعى، وتحرض المقاتلين، وتشجع المستضعفين، وتثبت فرائص المجاهدين، غيرَ مبالية بالجوع والحصار، أو العطش ومرارة الانتظار، أو الموت أو الوقوع فى الإسار:

ولو كان النساء كمثل هذى لفُضِّلت النساء على الرجالِ

ولا تظنن من ذلك أن السيدة زينب كانت قاسية غليظة، لا يعرف قلبُها اللينَ والرحمة، حاشاها أن تكون كذلك وهى بنت أكرم الناس، وسلالة الرفق والمرحمة، بل كانت تضع كل شىء فى موضعه، فتَجِدُّ فى موضع الجد، وتبذل غاية ما تستطيع، فإذا استحكمت الحلقات، وسُدَّت السبل، وبلغ السيل الزبى، وحم القضاء الأليم، وأناخ الدهر بكلكله، رأيتَها وقد نبض فؤادُها

بعاطفة الإشفاق والأسى ، واستجابت لنوازع النفس البشرية التى لا تُقهر ولا تغالب .

وحسبك دليلا على ذلك أن تستعرض لها الموقفَ التالى ، الذى حدث حينما أُحيط بالحسين قُبيل موقعة « كربلاء » ، وفيه أحست زينب بأن أخاها مقتول بعد قليل ، فحزنت من أجله ، وجزعت له ، وها هو ذا أمامك تتأمله وتتدبره .

قال على بن الحسين :

إنى والله لجالس مع أبى الحسين عشيةَ مقتله ، وأنا عليل ، وهو يعالج تُرْساً له ، وبين يديه « جَوْن » مولى أبى ذر ، فسمعته يرتجز فى خبائه ويقول :

يا دهرُ أفٍّ لك من خليلِ   كم لك بالإشراق والأصيل
من طالب أو صاحب قتيل   والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل   وكلُّ حىٍّ سالكٌ سبيلى ! !

قال على : أما أنا فسمعتهُ ورددت عَبْرتى ، وأما زينب عمتى فسمعتْه دون النساء ، فلزمتها الرقة والجزع ، فخرجت حاسرة تنادى : واثكلاه ! . واحزناه ! . ليت الموت أَعدمنى الحياة ، يا حُسيناه ! . يا سيداه ! . يا حبيباه ! . يا بقيةَ الماضين وثِمَال(١) الباقين ، بئست الحياةُ اليوم ، اليوم ماتجدى وأُمى وأَبى وأَخى ،

(١) الثمال : الغياث .

اليوم مات جدى المصطفى ، وأمي فاطمة ، وعليٌّ أبى ، والحسن أخى .

فسمعها الحسين ، فتأثر وقال لها : يا أُختاه ، لا يذهبن بحلمك الشيطان ، والله يا أُختاه لو تُرِكَ القطا[1] لنام ! فقالت : ما أطول حزنى ، وما أشجى قلبى ! ... بأبى أنت وأُمى ، استقتلتَ نفسَك ؛ نفسى لنفسك الفداء ! . . فردد غصته وترقرقت عيناه ثم قال : لو ترك القطا لنام .. فقالت : واويلتاه ، أَفتغصبك نفسُك اغتصابا ؟ فذلك أقرح[2] لقلبى ، وأشد على نفسى ، وأطول لحزنى ..

ثم خرت مغشياً عليها ، فقام إليها الحسين رضى الله عنه ، فصبَّ على وجهها الماء حتى أفاقت ، وقال : اتق الله يا أختاه واصبرى ، وتعزى بعزاء الله ، واعلمى أن أهل الأرض يموتون ، وأهل السماء لا يبقون ، وأن كل شىء هالك إلا وجه الله ، فلا يبقى إلا وجهه سبحانه ، الذى خلق الخلق بقدرته ، ويُميتهم بقهره وعزته ، ويعيدهم فيعبدونه وحده ، وقد مات جدى وأبى وأمى وأخى ، وجدي خيرٌ منى ، وأبى خير منى ، وأمى خير منى ، وأخى خير منى ، كلهم خير منى ، ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله أُسوة[3] ، فلا يذهبن بحلمك الشيطان .

وهنا أيقنت السيدة زينب أن شقيقها وقرة عينها وبقية دوحتها

(١) القطا : نوع من الحمام .
(٢) أشد جرحا وإيلاماً .
(٣) أسوة : قدوة .

وذؤابة أسرتها مُصِرٌّ على الاستشهاد بعد قليل ، وعلمت أنه مقتول لا محالة ، فودت لو تفتديه بنفسها ، و ناشدته ذلك فى رجاء وضراعة خوفا منها عليه ، وحباً منها له ، فأخذ يذكِّرها بما أعده الله للمجاهدين من ثواب عظيم ، ونعيم مقيم ، ثم قال لها : يا أُخية . . إنى أقسم عليك ، لا تشقِّى على جيبا ، ولا تخمشى وجها ، ولا تدعى على بالويل والثبور إن أنا هلكت . .

***

ثم خرج الحسين إلى أصحابه فأمرهم بالتهيؤ للقتال ، ونصحهم بأن يقربوا بعضَ بيوتهم من بعض ، وأن يدخلوا الأطناب بعضَها فى بعض ، ويكونوا بين يدى البيوت ليستقبلوا أعداءهم من وجه واحد ، والبيوت عن أيمانهم وشمائلهم ومن ورائهم .

ثم أخذ مكان العبادة فقام الليل كلَّه يصلى ويستغفر ، وأهله وأَصحابه يقتدون به ، وأَعداؤهم تتلمظ شفاههم الأثيمة شوقاً إلى دمائهم الطاهرة .

ولما التقى الجمعان من الغد تكاثر الأنذال على الحسين بن على ريحانة رسول الله وسبطه ، والذى قال فيه : « حسين منى ، وأَنا من حسين ، أَحب الله من أَحب حسينا ، حسين سبط من الأسباط[1] » . فقتلوا جماعة من أَصحابه وعشيرته وهو جلد صبور ،

(١) فى القاموس : « حسين سبط من الأسباط : أمة من الأمم » ، لأن السبط معناه الجماعة والقبيلة ، ولعل معنى الحديث أن الحسين فى الرفعة والمكانة كمكانة أمة ، أو أن له من الأجر والثواب كأجر أمة لعظيم فضله وعمله .

لا يفر بل يُقدم ، ويتلقى الطعنات من هنا ومن هناك ، ولما حمى وطيس القتال ، واشتد بالحسين الحال ، خرجت السيدة زينب من خبائها وهى تهتف : ليت السماء انطبقت على الأرض ! ..

وقد دنا منها عمر بن سعد بن أَبى وقاص فقالت له : يا عمر ، أَيُقتل أَبو عبد الله (الحسين) وأَنت تنظر ؟ . فدمعت عيناه حتى سالت دموعه على خديه ولحيته ، وصرف وجهه عنها ، وأَخوها الحسين يصارع الأنذال مصارعة الأبطال ، وهو يهتف : أَعَلَى قتلى تجتمعون ؟ . . . وايم الله إنى لأرجو أَن يكرمنى الله بهوانكم ، ثم ينتقم لى منكم من حيث لا تشعرون .

شجاعتها وصبرها

ثم وقعت الواقعة التى اهتزت لهولها أرجاء السموات والأرض ، وبكى لها الجماد والحيوان والإنسان ، وا كفهرت لها السماء ، ورجفت الغبراء ، فصعدت روح الحسين الشهيد إلى الملأ الأعلى تحفها ملائكة الرحمن ، وأنوار الإيمان ، وأضواء الشهادة ، تشكو إلى خالقها طغيان الفساد بين العباد ، فما وهنت السيدة زينب ولا استكانت ، بل صبرت وصابرت ، وعزمت وأقدمت ، وجاهدت فى سبيل الله جهادَ الصادقين ، وادخرت أخاها عند مليك مقتدر ، وتذكرت قول الحق تبارك وتعالى : «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الذين إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ[1] » . وقوله : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ،

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٥٥ — ١٥٧ .

أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ(1) » .

***

ويروى أن السيدة زينب أظهرت فى معركة « كربلاء » شجاعة فائقة ، وحماسة نادرة ، فهى فوق ما سبق من جهودها وأعمالها تُذكر لها مواقفُ صدق تدل على مبلغ ما تؤديه المرأة المؤمنة الموقنة من جهاد ونضال ، فقد هجم على خبائها مجرم أثيم من الباغين الظالمين ، الذين أسرفوا فى عداوتهم وانتقامهم ، وحرصوا على ملكهم ودنياهم ، وكان يسمي « شمر بن ذى الجوشن » ، يريد قتل الإمام على زين العابدين ، بعد أن قتل أبوه الحسين ، ويقال إنه هو نفسه الذى قتله ؛ فصرخت السيدة فى وجهه صرخةَ الليث الهصور ، وقالت : والله والله لا يُقتل حتى أُقتلَ قبلَه ! . . . فألقى الله الرعب فى قلب ذلك المفتون ، وصرفه عن قتل زين العابدين .

***

وجاء عمر بن سعد ، فحمل السيدة زينب مع إخوتها وأبناء الحسين ، وارتحل بهم إلى الكوفة ، فمر بهم عَلَى « الحسين » وأصحابه ، وهم قتلى فى « كربلاء » ، فصاحت النساء ، وصاحت زينب أخته : يامحمداه ، صلت عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء ، مُزَمَّل بالدماء ، مقطَّع الأعضاء ، يامحمد ، هذه بناتك سبايا ، وذريتك

---

(1) سورة آل عمران ، آية ١٦٩ — ١٧١ .

مقتَّلة ، تسفى عليها الصَّبا[1] ! ..... فأبكت كلَّ عدو وصديق ! ! ..

ولما أدخلوها مع أسرتها على « عبيد الله بن زياد » والى « يزيد ابن معاوية » على الكوفة ، لبست زينب أرذل ثيابها متنكرة ، وحفّت بها إماؤها[2] ، فقال عبيد الله : مَنْ هذه التى انحازت فجلست ناحية ، ومعها نساؤها ؟ . فلم تجب بشىء ، وكرر ذلك ثلاثا ، وهى لا تنطق ببنت شفة إباءً وتحلما . فقالت بعض إمائها : هذه زينب بنت فاطمة وعلى وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم !... فقال لها ابن زياد : الحمد لله الذى فضحكم ، وقتلكم ، وأكذبَ أحدوثتكم ! ..

فقالت زينب : الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وطهرنا من الرجس تطهيراً ، وإنما يُفضح الفاسق ، ويكذَّب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله . . .

فقال : كيف رأيتِ صنعَ الله بأهل بيتك ؟ . قالت : كتب الله عليهم القتل ، فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده ! . . فغضب ابن زياد لهذا التبكيت الموجع الأليم والتعريض المقذع البليغ ، الذى يهد الصخر ويفتت الفولاذ . فقال :

---

(١) مزمل : ملفوف . سبايا : قد أسرهن العدو . تسفى عليها الصبا : تحمل الريح التراب إليها فتكسوها به .

(٢) إماؤها : جواريها .

قد شفى الله نفسى من طاغيتك ، والعُصاة المَـردَة من أهل بيتك ! . . .

فتذكرت السيدة زينب حينئذ تلك الصفوةَ المنتقاة المختارة من أهلها الغر الميامين ، الذين سقطوا فى ميدان الجهاد ، بطلا بعد بطل ، وصنديدا فى إثر صنديد ، ورأت كيف اخترم الموتُ عِترتَها وكتيبتها ، وشتَّتَ فى أنحاء الأرض أسرتها ، فأدركتها لوعةُ الأسى ، وحرقة الأسف . فبـكت وقالت : لعمرى ، لقد قتلتَ : كهلى ، وأبَرت[1] أهلى ، وقطعت فرعى ، واجتثثت[2] أصلى ، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت ! . .

قال المخنول بن زياد . هذه سجَّاعة لعمرى ، ولقد كان أبوها سجاعاً شاعراً ! . فقالت : ما للمرأة والسجع ؟ إن لى عن السجع لشغلا ! ! . .

ألا ما ألأم هذه الحياة وما أَخسها ، وما أَدنأ هذه النفوس وما أَحطها ، وهذا الدهر العجيب دوار بكل داهية على الأحرار ، سباق بكل قاصمة إلى الأبرار :

إن كان عندك يازمان بقية　　　مما يضام به الـكرام فهاتها

* * *

ولـكن صبراً صبراً ، فإن الباطل لا يصول إلا فى غفوة أهل

---

(١) أى أهلـكت .

(٢) أى قطعته واستأصلته .

الحق ، ولا يحسبن الباطل حين يستعلى ويتجبر أن رقاد أهل الحق سيطول ، وإن ساعة العدل على الظالم لأشد من ساعة الجور على المظلوم ، وإذا كانت سنة الحكيم العليم قد اقتضت أن يغنى بعض السفهاء أو الوقحاء فى هذه الدنيا فيأكلوا ويشربوا ، ويبغوا ويطغوا ، فما أقصر ظل هذه الحياة ، وما أقرب أمدها ، وما أهون شأنها عند بارئها ، فلو كانت تساوى عنده كما روت الآثار جناح بعوضة لما سقى الكافرَ منها شربة ماء .

ومن خلف هذه الدنيا حياة طويلة خالدة ، هي الحياة الحقة الصحيحة كما يقول التنزيل : « وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ لَهِيَ ٱلحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[1] » . وكم من عتل جبار بَغَي فى الأرض ، وعاث فيها فساداً ، وأَهلك الحرث والنسل ، حتي خُيِّل إليه أَنه من الخالدين ، ثم جاءته سكرة الموت ، فما أَغنى عنه مالُه ولا ولده ولا سلطانه ولا أَعوانه شيئاً ، بل استحال إلى جيفة أُلقيت فى حفرة ملؤها التراب والدود ، وذلك بعد الدُّور والقصور ، والمباهاة بدار الغرور :

باتوا علي قُلل الأجبال تحرسهم ... غُلْب الرجال فما أغنتهم القُلَلُ
واستنزلوا بعد عزٍّ عن معاقلهم ... فأُودعوا حُفَراً ، يابئسما نزلوا
ناداهم صارخٌ من بعد ماقبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل ؟

(١) الحيوان أى الحياة الكاملة الخالدة . سورة العنكبوت ، آية ٦٤ .

أين الوجوه التى كانت منعَّمة

من دونها تضرب الأستار والكللُ

فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم :

تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طالما أكلوا دهرا وما شربوا

فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا

يحدث مثل هذا للمفترين الباغين، بينما يسقط فقير مؤمن، مستشهدا فى سبيل الله، معفرًّا بتراب المعركة الحمراء فى سبيل العقيدة واليقين، فتتلقاه الملائكة، وترفعه أجنحتها، وتظلله أطيافها، ويهتز له عرش الرحمن، ويقال له : لقد نجوتَ من دار الفجور والفناء، فتعال إلى دار النعيم والبقاء : « ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلًا[1] » .

(١) سورة الكهف، آية ٤٦ .

فداؤها الذرية أخيها

وزينب ترى — وقد سقط شقيقها مضرجا بدماء الشهادة في ساحة البطولة — أن تكرمه فى شخص ذريته ، وأن تضحى بحياتها فى سبيل أولاده ، وأن تعرض نفسها لطعنات السيوف ، لكى تنقذ هؤلاء الصغار من ذل الإسار ، أو وثبة الانتقام ، دون أن تنال هذه الأحداث من صبرها أو ثباتها ، فكأن المحن لم تزدها إلا إيمانا ، وكأن الابتلاء لم يزدها إلا يقينا .

لقد أطلق ابن زياد بصره فيمن معها من ذرية الحسين وحفدة الرسول ، فأبصر على بن الحسين ، فقال له : من أنت ؟ . فقال : على ابن الحسين .

فقال ابن زياد : أولم يقتل الله علىَّ بن الحسين ؟ . فقال : كان لى أخ يسمى « عليا » قتله الناس . فقال ابن زياد : إن الله قتله . فقال عَلِىّ : إن الله يتوفى الأنفسَ حين موتها ، وما كان لنفس أَن تموت إلا بإذن الله .

فغضب ابن زياد وقال : وبك جرأة على جوابى ؟ . . ثم قال : إنى لأظنه قد أَدرك (أَى وصل سن البلوغ) فاذهبوا به واضربوا عنقه .

فتعلقت به زينب عمته، وقالت، ياابن زياد، حسبك منا؛ أما شبعت من دمائنا؟. ثم اعتنقت زينب ابن أخيها وصاحت: والله لا أفارقه، فإن قتلته فاقتلني معه!...ولما رأى ابن زياد ذلك منها تركه، وقال: دعوه لما به!!...

هكذا تأبى الأقدار العالية لحكمها السامية التي قد ندريها وقد لا ندريها أن يتحكم الأخساء الحقراء حيناً في الأطهار النبلاء، ويعلو الوضيع الرقيع على أصحاب الحسب الرفيع والعزم الجميع!!.. ألا إنها عظة العزيز الجبار، يريد أن يعلم أهلَ الدعوات والمبادئ أن الثمن يُدفع اليوم تشريداً واضطهادا، واختبارا وجزاء، وأن التجارة الرابحة ستعطى لهم في مقابل ماقدموا.

«يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»

«إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِ، وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ(١)».

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد»!..

(١) سورة التوبة، آية ١١١.

سلاغتهصا

وها هي ذي رضوان الله عليها تبكي أخاها أحر البكاء ، وتبكت الذين فرطوا في دمه ، وتقرع الذين ضحوا به ، ولوثوا أيديهم ، وسودوا صحائفهم ، واستوجبوا عقاب ربهم بقتله ، تقرعهم تقريعاً شديداً فتقول :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم :
ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي[1] ، وبأهلي بعد مفتقدي
منهم أسارى ومنهم خُضِّبوا بدم ؟!
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم
أن تَخْلُفوني بسوء في ذوي رحمي !!
ضيعتمُ حقَّنا ، فالله ضيَّعكم
وقدرعى (الفيلُ) حقَّ البيت والحرم

وهاهي ذي تقف بين أهل الكوفة الناكثين الغادرين ، الذين نقضوا الميثاق ، وخانوا العهد ، وخاسوا بالذمة ، وغرروا بالحسين

(١) عترتي : أهلي وذريتي وأقربائي .

فدعَوْه إليهم ، ثم خذلوه ونكصوا على أَعقابهم ، وضيعوا دمه بجبنهم وترددهم ، ثم عادوا بعد مقتله يبكون عليه ، ويتحسرون لفقده ، كأنهم لم يقترفوا الإثم بأيديهم ، ولم يزهقوا روحَ البطل الشهيد بتفريطهم وتقاعسهم ! .

ها هى ذى تقف بينهم وهم يتظاهرون بالحزن والبكاء والأَسف على الحسين شقيقها ، فلا تنخدع بدموع التماسيح تسيل منهم ، ولا ينطلى عليها زورهم وبهتانهم ، بل تفجؤهم بصوت الحق ، وتصدعهم بمنطق الصدق ، وتقفهم على ذات نفوسهم الخبيثة ، وخبيئة قلوبهم الخسيسة ، دون أَن تخاف جموعهم ، أَو ترهب صولتهم واعتداءهم ، فتخطبهم فى جرأَة وشجاعة مبكِّتة مؤدبة ، مقومة مهذبة ، سابة لاعنة ، فتقول لهم :

يا أهل الكوفة ؟ . .

أتبكون ؟ ! . .

فلا سكنت العبرة ، ولا هدأَت الرنة ! ..

إنما مثلكم مثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أَيمانكم دَخَلاً بينكم ، أَلا ساء ماتزرون ! ..

إى والله ، فابكوا كثيراً ، واضحكوا قليلا ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها[1] بغسل أَبداً .

---

(١) لن ترحضوها : لن تغسلوها أو تطهروها .

وكيف ترحضون قتلَ سبط خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومدار حجتكم ، ومنار محجتكم ، وهو سيد شباب أَهل الجنة ؟ . . .

لقد أَتيتم بها خرقاء شوهاء ! ..

أتعجبون لو أمطرت السماء دماً ؟

أَلا ساء ما سولت لكم أنفسكم ، أَن سَخِطَ الله عليكم ، وفى العذاب أَنتم خالدون ! ..

أَتدرون أَى كبد فريتم[1] ؟ وأَى دم سفكتم ؟ وأَى كريمة أَبرزتم ؟ .

« لقد جئتم شيئاً إداًّ ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا[2] ! » .

يامحمداه ، هذا حسين بالعراء ، مزمَّل بالدماء ، مقطَّع الأعضاء .

يامحمداه ! .. بناتك سبايا ، وذريتك قتلى ! ..

يا أَهل الكوفة ! لعذابُ الآخرة أَخزى وأَنتم لاتبصرون ! .

كلا إن ربى وربكم بالمرصاد[3] ! ..

---

(١) قطعتم .

(٢) سورة مريم ، آية ٨٩ و ٩٠ .

(٣) يروى أن النذل الذى ضرب الحسين فقتله — ويقال « إنه سنان بن أنس النخعى » ويقال غيره — ذهب إلى ابن زياد مفتخرا فقال :

أوقر ركابى فضة وذهباً إنى قتلت الملك المحجباً
قتلت خير الناس أما وأباً وخيرهم إذ يذكرون نسباً

فغضب ابن زياد وقال : إذا علمت ذلك فلم قتلته ؟ . والله لا نلت منى خيراً ، ولألحقنك به ! . . ثم ضرب عنقه ! . .

ولم يمض قليل حتى نكل الله ببقية الفئة الباغية !.. عن الزهرى : لم يبق أحد ممن=

وكانت هذه البلاغة الفذة فى الخطاب سبباً فى أن يضج الناس بالبكاء والعويل، ففزعوا من هول ماسمعوا، وسقط فى أيديهم، ورأو أنهم قد ضلوا، وبلغ بهم الأسف مبلغه، فسالت الدموع، ووجفت القلوب، واقشعرت الأجساد، واستبانت العقول ما أمامها من هول شديد وعذاب اليم فى يوم الدين، وما أدراك مايوم الدين؟ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله!!

ومن كلامها الواعظ: من أراد ان يكون الخلقُ شفعاءه إلى الله فليحمده، ألم تسمع قولهم: سمع الله لمن حمده؟ خف الله لقدرته عليك، واستح منه لقربه منك[1]

= حضر قتل الحسين إلا عوقب فى الدنيا قبل الآخرة، إما بالقتل، أو سواد الوجه، أو تغيير الخلقة، أو زوال الملك فى مدة يسيرة..

وكتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج: جنبنى دماء أهل هذا البيت (بيت النبي)، فإنى رأيت بنى حرب (الأمويين) سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين.

(١) وسيمر بك بعد قليل خطبة جليلة لها تضم إلى آياتها فى ميدان البلاغة.

ترحيلها إلى الشام

وبعد ذلك أمر الطاغية ابن زياد بتجهيز الأسرى ، وفيهم البتول زينب ، وترحيلهم إلى الشام مقر أميره يزيد بن معاوية ، فجُهِّزوا وحملوا على الأقتاب[1] ، ولما بلغوا الشام بعد جهد جهيد وبلاء عنيد ، أُخذت النساء ، وأُدخلن على نساء يزيد فى خدورهن ، وفيهن بقيةُ حياء ، ولهن ثمالة دين ، فما رأى نساء يزيد نساء محمد ، وفيهن زينب حتى خشعن وخضعن ، وهالهن هذا النور ، وذلك الجلال ، فجاءت نسوةُ يزيد إليهن ، وسألنهن عما أُخذ منهن ، فضاعفنه لهن ! . . . وهكذا خفف نساء يزيد جانباً من مآثم يزيد التى كانت ! .

ثم أمر يزيد بإنزالهن فى دار مستقلة مجاورة لداره ، ورُوِى أنه كانت معهن فتاة صغيرة للإمام الحسين بن على تسمى « فاطمة » ، وعمرها ثلاث سنوات فحسب[2] ، وكانت تجهل موت أبيها ، لأن القوم ستروا المأساة عنها ، كى لايقضى عليها ، ولكنها طلبت رؤيته مرات ومرات فلم تجب ، وصعب عليها فراقه ، وأخيراً أحست بحقيقة الحال ، وكوشفت بالنبأ الأليم ، ففاضت روحها على الأثر !!.

وصعدت إلى بارئها تنطق بدمائها على أولئك الطغاة الأشرار ،

---

(١) الأقتاب : براذع الجمال .

(٢) هكذا جاءت الرواية ، ويستبعد هذا بعض الأدباء ! . .

وتشهد عليهم بأنهم جاروا فما استناروا ، وأجحفوا فما أنصفوا ، وكانوا من الظالمين : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ، مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ، لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ »[1] ! . .

---

(١) سورة إبراهيم ، آية ٤٢ و٤٣ .

أمثلة من شجاعتها وبلاغتها

ومما يدل على شجاعة السيدة زينب رضى الله عنها ، وصادق اعتمادها على ربها ، وقلة مبالاتها بطواغيت الشر وفراعين السوء ، أنها وقفت بعد مقتل أخيها الحسين ، أمام يزيد بن معاوية — وهو الظافر المنتصر ، وهو المستبد الآمر الناهى ، وهو الأمير الحاكم الباغى — فى جرأة وثبات ، وعزيمة ورباطة جأش ، دون أن يدركها ما يدرك مثيلاتها من النساء فى مواطن الهول والنزع ، والفتنة والجزع ، من الاضطراب والزلزلة ، أو الضعف والبلبلة ، بل كانت هى هى ، مثال الاطمئنان والإيمان ، والثبات والاستقرار . .

وقفت مع أولاد الحسين أمام يزيد ، فقام رجل وقح من أهل الشام ، وطلب من يزيد أن يهب له فاطمة بنت الحسين رضى الله عنهما ، فأمسكت فاطمة بثياب عمتها زينب كالمستجيرة بها ، فقالت زينب لذلك الوقح فى جرأة وعزيمة : كذبت ولؤمت ، ما ذلك لك ولا له .

فغضب من ذلك يزيد ، وخُيِّل إليه أن ملكه ينهار على لسان هذه المرأة ، فهى تعبث به وبسلطانه ، فقال : كذبتِ ، إن ذلك لى ، ولو شئتُ لفعلت ! . .

قالت : كلا والله ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا .

فقال يزيد : كذبت يا عدوة الله .

فقالت مبكتة مؤنبة : أنت أمير تشتم ظالماً ، وتقهر بسلطانك . .

وهنا عاد إلى يزيد حياؤه ، وأدركته بقية من خجل فسكت !! . .

***

انظر كيف تجلت شجاعتها فى موطن تتزلزل فيه الأقدام الراسخة من كرام الرجال ، ثم انظر كيف استطاعت — حين رأت اللؤم مستحوذاً ، والخسة مستحكمة — أن تحي فى موات يزيد الباغى صُبابة من خجل وحياء ، جعلته يرتدع عما هم به من عبث بأعراض طاهرة ، وحرمات كريمة ، فأمكنها أن تحول بينه وبين فعلته التى هم أن يفعلها ؛ صدته بالحكمة وحسن السياسة بعد أن رأت ألا مُكنة لها فى دفعه عن ذلك بالقوة والسلاح ! . . وأنَّى لها وهي امرأة كسيرة مجردة من كل سلاح ، أمام منتصر متجبر شامت ؟ ! . . .

ولا تظن أنها تابعت ملاينتها فى خطابه ، بل ها هي ذى قد عادت إلى ثورتها المشهورة ، فجعلت تذكره بآثامه وخطاياه ، وتنذره بعذاب الله ، فى تقريع شديد ، وتأديب بليغ ، وفى عبارة تهولك

روعة وقوة ، وتأسرك بلاغة وإبانة ، فكأنها أبوها « على » وقد وقف يهدر هدير الفحل يبلاغته الفذة بين جنده وأصحابه ، يدفعهم إلى الجهاد ، أو يستحثهم على الاستشهاد ، ولا عجب ، فإن هذه البضعة من ذلك الأصل ، وإن هذا الغصن من تلك الشجرة ، ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيراً ! . .

***

انظر إليها وقد وقفت أمام يزيد بلا فزع أو خوف ، عندما وضعوا رأس الحسين الشهيد بين يدى يزيد العنيد ، وبالغ يزيد فى التشفى والانتقام ، فجعل يدحرج الرأس الشريف بين يديه ، وينكت ثنايا الحسين بخصرته ، ويقول شامتاً متشفيا :

يا غراب البين أسمعتَ ، فقل
إنما تذكر شيئاً قد فُعِلْ
ليت أشياخى ببدر شهدوا
جزعَ الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلوا فرحاً
ثم قالوا : يا يزيد تشل لا

فانبرت له السيدة زينب فى ثقة وإيمان ، وثباتِ جنان ، وجعلت

تؤدبه وتؤنبه، وتردعه وتزجره، وتحز جانبه، وتطعن كبرياءه، وتلطم غروره بهذه اللطمات. قالت[1] :

« صدق الله ورسوله يا يزيد!.. « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ[2] »

أظننت — يا يزيد — أنه حين أُخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى، أن بنا هوانًا على الله، وأن بك عليه كرامة؟!..

وتوهمت أن هذا لعظيم خطرك، فشمخت بأنفك، ونظرت فى عطفيك جذلان فرحا، حين رأيت الدنيا مستوسقة لك، والأمور متسقة عليك، وقد أُمهلت ونُفِّست! إن الله إن أمهلك فهو قوله: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ[3] »!...

أمن العدل — يابن الطلقاء — تخديرك بناتك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم كالأسارى، قد هتكت ستورهن، وأصحلت أصواتهن، مكتئبات، تجرى بهن الأباعر، وتحدو بهن الأعادى من بلد إلى بلد، لا يراقبن ولا يؤوين، يتشوفهن القريب والبعيد، ليس معهن قريب من رجالهن؟!..

(١) سيأتى تفسير ما فى هذه القطعة من غريب فى آخرها.
(٢) سورة الروم آية ١٠.
(٣) سورة آل عمران آية ١٧٨.

وكيف يُستبطأ فى بغضتنا من نظر إلينا بالشنق والشنآن والإحن والأضغان ؟!..

أتقول : « ليت أشياخى ببدر شهـــدوا » غير متأثم ولا مستعظم ، وأنت تنكت ثنايا أبى عبد الله بمخصرتك ؟..

ولم لاتكون كذلك وقد نكأت القرحة ، واستأصلت الشأفة ، بإهراقك هذه الدماء الطاهرة : دماء نجوم الأرض من آل عبد المطلب ؟!..

ولتردن على الله وشيكا موردَهم ، وعند ذلك تود لو كنت أبكم أعمى ، وأنك لم تقل : « .. لأهلّوا واستهلوا فرحاً » !..

اللهم خذ بحقنا ، وانتقم لنا ممن ظلمنا !..

أيزيد !.. والله مافريتَ إلا فى جلدك ، ولا حززت إلا فى لحمك ، وستَرِد على رسول الله صلى الله عليه وسلم برغمك ، ولتجدن عترته ولحمته من حوله فى حظيرة القدس ، يوم يجمع الله شملهم من الشعث : « وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ[1] » .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٦٩ — ١٧١ .

وستعلم أَنت ومن بوأَكـ ومكنك من رقاب المؤمنين ، إذا كان الحَكَم ربنا ، والخَصْم جدنا ، وجوارحك شاهدة عليك ، فَبِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ! . .

هنالك تعلم أَينا شر مكاناً ، وأَضعف جنداً ! . .

مع أنني — والله — ياعدو الله وابن عدوه أستصغر قدركـ ، وأستعظم تقريعك ، غير أن العيون عبرى ، والصدور حرى ، وما يجزى ذلك ، أو يغنى عنا ، وقد قتل أخى الحسين ؟ . .

ألا إن حزب الشيطان يقربنا إلى حزب السفهاء ، ليعطوهم أموال الله عوناً على انتهاكـ محارم الله . فهذه الأيدى تنطف من دمائنا ، وهذه الأفواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الزوا كى يعتامها عُسلان الفلوات .

فلئن اتخذتنا فى الحياة مغنما ، لتجدننا عليك مغرماً ، حين لا تجد إلا ماقدمت يداكـ .

تستصرخ بابن مرجانة ، ويستصرخ بك ، وتتعاوى وأَتباعك عند الميزان ، وقد وجدت أَفضل زاد تزودت به قتلَ ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ! ! . .

فو الله مااتقيتُ غير الله ، وما شكوت إلا لله ، فـكد كيدكـ ، واسع سعيك ، وناصب جهدكـ ، فو الله لا يرحض عنك عارُ ما أتيت أبداً !!..

والحمد لله الذى ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبان الجنان ، فأوجب لهم الجنة ، أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله ، فإنه ولى قدير »[1] ! ..

هكذا تكون طلاقة اللسان ، وقوة البيان ، وثبات الجنان ، وهكذا ترسخ فى القلوب أركانُ الإيمان ، فتصدع بكلمة الحق حين لا يعرف حميمٌ حميما ! ..

ولقد حرصنا على أن ننقل هذه القطعة الطويلة الجليلة بأكملها ، لتكون خيرَ برهان وأسطعَ شاهد على ما انطوت عليه نفس هذه السيدة الزكية من صفات السمو والنبل ، والجرأة والشهامة ، والبلاغة والإفصاح ، وحسب القارئ أن يرجع إلى هذه القطعة الرائعة بعد أن يحيط علماً بمعانى مفرداتها وتراكيبها ، ولو بصورة

---

(١) أكناف : جوانب . وعطفيك : جانبيك ، يمينك وشمالك . ومستوسقة : مجتمعة مطيعة ، ويقال : استوسقت الأمة على كذا أى اجتمعت واتفقت عليه . ومتسقة معتدلة مساعدة . وابن الطلقاء : إشارة للمقول النبى لكفار مكة — ومنهم آباء يزيد — يوم الفتح : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، وإنه لتذكير وتبكيت ! .. وأصحلت أصواتهن : الصحل بفتح الصاد والحاء — كما فى اللسان — انشقاق الصوت ، وألا يكون مستقيما يزيد مرة ويستقيم أخرى ، وأن يكون معه فى الصدر حشرجة . والأباعر : الجمال . وتحدو بهن : تنقلهن . ويتشوفهن : يتطلع إليهن فيراهن . والشنق والشنآن : العداوة والبغضاء . والإحن والأضغان : الأحقاد . وغير متأثم : غير خائف من الإثم . وتنكث : تنفض وتنبذ وتضرب . وثنايا : أسنان . والمخصرة : قضيب كالعصا يمسكه الخطيب عند حديثه . ونكأت القرحة : قشرت الجرح فعاد مؤلما . واستأصلت الشأفة : أهلكت كل شيء . ووشيكا : قريبا . وفريت : قطعت . والشعث : التفرق . وعترته : ذريته . وتنطف : تسيل . ويعتامها عسلان الفلوات : تفترسها ذئاب الصحراء . ولا يرحض : لا يغسل .

تقريبية ، ليرتوى منها ويعجب بها ، ويقف أمامها وقفةَ المأخوذ بما فيها من سحر يأخذ بالألباب ! !.

***

ويروى أن يزيد عند ما سمع بكاء السيدة زينب ورثاءها للحسين ، وحملتَها عليه وعلى أتباعه ، تأثر واستدعى إليه على بن الحسين بن على ، وهو الملقب بزين العابدين ، وقال له : ياعلى ، لعن الله ابنَ مرجانة ، أما والله لو أنى صاحبتُه ماسألنى أبوك خصلةً أبداً إلا أعطيتُه إياها ، ولدفعت عنه الحتفَ بكل ما استطعت ، ولو بهلاك بعض ولدى ، ولكن ماذا ينفع لو وليت ! ؟ وقد قضى الله مارأيت !.. ثم خيَّر أهلَ البيت بين المقام فى الشام أو الرحيل إلى المدينة فاختاروا المدينة ، فأمر يزيد النعمانَ بن بشير بأن يجهز لهم رحالهم ، وأن يخصص لهم من يحرسهم فى الطريق ، ففعل النعمان ما أمره به يزيد ! ! .

هذا ماروى ، ولكن الذى يظهر أن يزيد قد ضاق ذرعاً بالسيدة زينب ، وخشى أن تؤلب عليه الجموع ، وتشعل نار الثورة ، فأراد التخلص منها مؤقتاً بترحيلها إلى خارج الكوفة .

ولقد كانت أمثال هذه الكلمات البالغة الثائرة السائرة التى ترسلها زينب الموتورة كالحمم تغلى فتأتى على بهتان الطاغين ، أوتزلزل بنيانهم ، وتزعزع كيانهم ، سبباً فى أن يأمر يزيد بن معاوية

بإخراج الزكية بنت الزكى السيدة زينب ومن معها من أقربائها وأهلها إلى المدينة ، فخرج الرسول ، وسار معهم عارفاً لهم كرامتهم وحرمتهم ، ذاكراً أن فيهم جمعاً كريماً من أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبناته ، وأنهم أحق من على الأرض بالإجلال والإكرام ، والإكبار والاحترام : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ[1] » .

فكان هذا الرجل الرسول يمشى من خلفهم ، ويسايرهم ليلا فيكونون أمامه ، لا يغيبون عنه ، ولا يفوتهم طرفه ، فإذا نزلوا للبيتوتة تنحى عنهم هو وأصحابه ، فلم يكونوا عليهم رقباء أو رؤساء ، بل كانوا لهم كهيئة حراس ، وكان هذا الرسول المؤمن يسألهم عن حاجتهم فيقضيها لهم ، وكان يلطف فى خطابهم ومعاملتهم ، لأنه كان مؤمناً صادقَ الحب لله ولرسوله وآل بيته ، وإن كان يطوى ذلك كلَّه خوفاً من بنى أُمية وعدوانهم :

أُحِبُّ الحسينَ ، ولكنما لسانى عليه ، وقلبى معه
حبست لسانى عن مدحه حِذَارَ أُمية أَن تقطعه
إذا الفتنة اضطرمت فى البلا
د ، ورمت النجاةَ فكن إمعه![2]

---

(١) سورة الشورى آية ٢٣ .

(٢) الإمع والإمعة : الرجل الذى يتابع كل واحد على رأيه ، ولا يثبت على شىء ، وفى الحديث : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت . وإن أساءوا =

فلما وصل الركب إلى غايته ، وطالعوا مشارف المدينة قالت فاطمة بنت الحسين لعمتها زينب : لقد أحسن هذا الرجل إلينا ، فهل لنا أن نصله بشيء ؟ . فقالت زينب : والله ما معنا ما نصله به إلا حُلِيُّنا ! . .

ثم نزعتا ما معهما من الحلى (سوارين ودُمْلجين) وبعثتا به إلى الرجل ، واعتذرتا لقلته أمام إحسانه وجميله ، فرده الرجل معتذراً فى أدب وقال :

والله ، لو كان الذى صنعتُه للدنيا لكان هذا يرضينى ، ولكنى والله مافعلته إلا لله . ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ! .

وهذه قولة رجل مسلم مؤمن ، يحفظ العهد ويصون الود ، ويخلص الحب ، ويراقب ربه فى دينه وعقيدته وآل نبيه ، وهكذا تكون مواقف الإباء والشهامة والنبل .

وهكذا يتمثل حسن التقدير وعرفان الجميل فى بنات الرسول ، كما يتمثل صدق الوفاء فى ذلك المسلم الأمين ، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل أصحابُ الفضل ! .

= أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم : إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإذا أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » والأبيات لشوقى فى « مجنون ليلى » .

رحيلها إلى مصر

ولما أحس اليزيديون بخطر السيدة زينب فى وجودها بالمدينة ، واجتماع الناس عليها يدبرون للأخذ بثأر الحسين ، ورأوا أنها بفصاحتها وعقلها وثباتها ستهيج عليهم الخواطر ، وتؤلب الجماعات وتبعث الثورة ، وتلفت أنظار الأحرار إلى الدم المسفوك والثأر المضيع .

وأنها أصبحت فى قلب دولتهم من أشد الأخطار عليهم ، اضطروها إلى الخروج من المدينة ، بعد أن شتتوا جماعتها ، وفرقوا عترتها ، وجعلوهم فى الأرض أباديد ، فاختارت رضى الله عنها مصر دار إقامة ، كما يروى ذلك بعض المؤرخين ، وإن كان ذلك موضعَ أخذ ورد ، واختلاف واضطراب ، وزيادة ونقصان ! ! . .

عن مصعب بن عبد الله قال : كانت زينب بنت على وهى بالمدينة تؤلب الناس على الأخذ بثأر الحسين ، فلما قام عبد الله بن الزبير بمكة ، وحمل الناس على الأخذ بثأر الحسين وخلع يزيد ، بلغ ذلك أهلَ المدينة فخطبت فيهم زينب ، وصارت تؤلبهم على القيام للأخذ بالثأر .

فبلغ ذلك عمرو بن سعيد ، فكتب إلى يزيد يعلمه بالخبر ،

فكتب إليه : أن فرِّق بينها وبينهم ، فأمر أن ينادَى عليها بالخروج من المدينة ، والإقامة حيث تشاء .

فقالت : قد علم الله ما صار إلينا ، قُتل خيرُنا ، وانسقنا كما تساق الأنعام ، وحملنا على الأقتاب ، فوالله لا خرجنا ، وإن أهريقت دماؤنا ! .

فقالت لها زينب بنت عقيل بن أبي طالب : يا ابنة عماه ! قد صدقنا الله وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء ، فطيبي نفساً ، وقَرِّي عينا ، وسيجزى الله الظالمين ، أتريدين بعد هذا هواناً ؟ ارحلي إلى بلد آمن ! ! . .

وما زال أهلوها بها حتى أقنعوها بالخروج والرحلة ، فدخلت مصر في أول شعبان من السنة الحادية والستين للهجرة ، بعد موقعة « كربلاء » بشهور ، فنزلت فيها بين الإجــلال والإعظام ، واستُقبلت استقبالا يليق بالأكرمين من آل سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين .

* * *

قيل : فلما بلغ نبأُ قدومها إلى مصر أسماعَ المصريين خرجوا حفاة خاضعين ، يتقدمهم الولاة والفقهاء والعظماء وكبار الأمة ، واستقبلوها بالقرب من « بلبيس » عند مدينة « العباسة » التي سُمِّيت بذلك الاسم نسبة إلى العباسة بنت أحمد بن طولون ، وكان من بين

مستقبليها والى مصر مسلمة بن مخلد[1] الذى تقـدم منها وعزاها في خشوع وخضوع ، وبكى فبـكت وبكى الحاضرون ، ثم قالت : « هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ »[2] .

(١) تولى مسلمة بن مخلد إمارة مصر فى عهد معاوية من جهته ، ومـكث فى إمارتها زمنا طويلا ، فزاد فى مسجدها الجامع وزخرفه ، وجعل فيه الصوامع للأذان ، وأمر ببناء منائر فى جميع المساجد ، ولعل القارىء من حقه أن يقف أمام احتفال مسلمة بمقدم السيدة زينب ، مع أنه من أتباع الأمويين أو مرءوسيهم على الأقل .

(٢) سورة يس آية ٥٢ .

وفـــاتهـــا

ثم احتملها مسلمة إلى داره بالحمراء القصوى ، حيث بساتين ابن عوف الزهرى ، فأقامت فيها عابدة متهجدة ، صوامة قوامة ، حتى تُوفيت رضى الله عنها فى مساء يوم السبت ليلة الأحد لأربعة عشر يوماً مضت من شهر رجب سنة ٦٢ من الهجرة . ودفنت بمخدعها من دار مسلمة ، وبعد عام من وفاتها اجتمع أهل مصر ومعهم وجهاؤهم وفقهاؤهم وقراؤهم ، وأقاموا لها موسماً حافلا هو « المولد الزينبى » الذى لا يزال إلى اليوم يقام ، من أَول رجب إلى منتصفه فى كل عام ! . . .

قرأَت فى كتاب « إسعاف الراغبين » للصبان فصلا عن السيدة زينب جاء فيه : « قال الشيخ الشعرانى فى مننه : أخبرنى سيدى على الخواص أَن السيدة زينب المدفونة بقناطر السباع (فى مصر) هى ابنة الإمام على ، وأَنها فى هذا المكان بلا شك ، وكان يخلع نعله فى عتبة الدرب ، ويمشى حافياً حتى يجاوز مسجدها ، ويقف تجاه وجهها ، ويتوسل إلى الله تعالى فى أن الله يغفر له » ! . . .

جثمانها

هذا وهناك كثير من الكتب العامة والمؤلفات الخاصة التى تحدثت عن جثمان السيدة زينب رضى الله عنها ، ووجوده فى مصر بمكانه المشهور ، وأوردوا لذلك أدلة كثيرة : بعضها روايات تاريخية وبعضها حوادث شخصية ، أو رُؤًى منامية ، أو ما أشبه ذلك .

وبجوار هؤلاء يوجد آخرون ينكرون وجودها فى مكانها أو يشككون فيه ، أو لا يقطعون به على الأقل ، وذلك لأسباب ، منها أنه من الصعب تحديد المكان الذى دفنت فيه تحديداً مضبوطاً وخصوصاً بعد تقادم الزمن ، وتبدل الأبنية ، وتغير المعالم ، وكذلك يرون أن أكثر الروايات والأخبار التى وردت فى هذا الباب تعتبر حوادث شخصية ، أو أخباراً فردية ، أو منامات ورؤى لا يعتمد عليها المؤرخ المحص .

ومما يزيد الحديثَ عن ضريح السيدة زينب وعن أخبارها اضطراباً كثرةُ المسميات باسمها قبلها وفى عصرها وبعدها ، فلها أختان كل منهما تسمى زينب ، الأولى : تسمى زينب الوسطى ، والثانية تسمى زينب الصغرى ، وهناك غيرهما زينبات كثيرات يحصين بالعشرات والعشرات ، من أسر العلويين وغير العلويين

فى مختلف الأزمان والعصور ، وقد ألف كثير من العلماء والباحثين كتباً مستقلة فى أَخبار أولئك الزينبات ، وتستطيع أَن تجد منها الكثير فى دور الكتب العامة إذا راجعت قوائم الفهارس الخاصة بكتب المناقب فى تلك الدور، وبخاصة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

رأى فى تكريم الأولياء

على أنه لا يعنينى كثيراً أن تكون السيدة زينب مدفونة فى مصر أو فى الشام أو فى العراق أو فى بلاد واق الواق ، فلست بعابد جثة أو وثن ، ولست بطائف حول ضريح أو مدفن ، وإنما أنا رجل أطلب القدوة عند أهلها ، وأهيم بالأسوة فى مجالها ، وإنما أنا مسلم أعرف روح الإسلام الذى جعل الدين خالصاً لله ، وأفرده بالعبادة والتقديس ، وإنما أنا مؤمن أدين بحب محمد وآله وعترته ورجاله ، لا لأكتفى بزيارة قبورهم ، أو التمسح بأضرحتهم ، أو الاتكال على شفاعتهم وحدها ، بل أحبهم لخصالهم وخلالهم ، أحبهم لسموهم وعلوهم ، أحبهم لجلالهم وكمالهم ، أحبهم لشريف أعمالهم وأقوالهم ، أحبهم لأننى أحب أن أكون مثلهم ، وأن أقتدى بهم ، وأن أحذو حذوهم ، فأفوز كما فازوا ، وأحوز كما حازوا ، وأجوز الأهوال كما جازوا ! . . فإن لم أستطع بلوغ ذروتهم ، أو الوصول إلى قمتهم ، فلا أقل من متابعتهم ، والسير فى آثارهم ، والاهتداء بأنوارهم ، والتشبه بطباعهم :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاح ! !

***

هذا شيخ النبيين وسيد المرسلين مولانا محمد العظيم عليه الصلاة والتسليم يرقد فى مكان متواضع من رمال الصحراء، ولكن نوره يملأ النواحى والأرجاء .

ها هو ذا يرقد هناك ، ولكنه حى هنا فى قلبى وقلبك وقلب كل مؤمن ، وفى عقلى وعقلك وعقل كل مسلم ، وإنى لأستطيع أن أحبه أقصى الحب وأعنفه بأن أكون متبعاً دينه وملته ، فما أنا ممن يكتفون بالأشباح ، ولكننى هائم بدنيا الأرواح ! .

فيا مسلمى العالم ، لا تطيلوا حواركم وجدالكم ولا تنصبوا أشراك العداوة بينكم ، ولا تختلفوا كثيراً حول الأضرحة ومواقعها ، والموتى ومدافنهم ، واجمعوا إن شئتم على حب نبيكم وآله بالاقتداء به ، والنسج على منواله ، واجتمعوا إن شئتم على التأسى بصالحيكم وأوليائكم ، تفوزوا برضا ربكم ، وتنعموا بشفاعة أحبابكم ! ! . .

اذكروا أن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال : « أدبوا أولادكم على ثلاث خصال : حب نبيكم ، وحب أهل بيته ، وعلى قراءة القرآن ، فإن حملة القرآن (يعنى العاملين به) فى ظل الله ، يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه » .

فلا يكن حبكم كلمة تردد ، أو دينكم زورة تؤدى ، بل اجعلوه حباً وتقرباً ، وقدوة وعبرة ، ونوراً وهداية ! . .

اذكروا أن نبيكم عليه الصلاة والسلام قد قال : « إن الله تعالى قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم ، والله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب . ولكن لا يعطى الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه » .

فانظروا فى أنفسكم فأنتم أدرى بها : أأعطاكم الدين فعملتم به ، أم غركم بالله الغرور ؟ ! .

اذكروا أيها الناس أن أولئك السادة الذين تحبونهم أو تدعون حبهم كانوا أسبق منكم إلى العمل والدأب عليه ، فلم يركنوا إلى قرابة ، ولم يتكلوا على شفاعة ، بل كانوا يرون العمل العام أو النفع الاجتماعى خيراً من العبادة الفردية . فهذا رجل يأتى إلى الحسن يستعين به فى حاجة ، فيجده فى خلوة ، فينصرف إلى الحسين ، فيقضيها له قائلا : « لقضاء حاجة فى الله عز وجل أحب إلى من اعتكافى شهراً » ! . .

واذكروا أن ذنوبكم التى تقترفون ، ومنكراتكم التى تصرون عليها لا تمحى عنكم بمجرد أن تسعوا إلى أضرحة أولئك الأكرمين أو تتظاهروا بحبهم والتعلق بهم ، وها أنتم أولاء تقرءون فى قرآنكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كيف أدب الله نساء نبيه وهن نساء نبيه ، وكيف حذرهن من المعصية وأنذرهن عليها العذاب مضاعفا ، وكيف حرضهن على القربات والصالحات

ليكنَّ قدوة للمسلمات ومثلا للمؤمنات فقال فى سورة الأحزاب :

« يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً . يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ، وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ، يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ، فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ، وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً ، وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ، وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ، وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ ، وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ، وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً . وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً[1] » !

***

(١) سورة الأحزاب آية ٢٨ — ٣٤ .

ثم أيها المتظاهرون بحب الرسول وآل بيته ، وليس لكم من حقيقة الحب نصيب ! . . أيها المدعون للتصوف وليس لكم منه إلا ظاهره ، أيها المحيطون بالأبواب والعتبات والجدران ، أيها الضالون فى مفترق الطرق ، أيها المطيلون للحى ، المرقعون للثياب ، المرددون للأوراد ، المتمتمون بالكلمات ، المثابرون على مسامرة المسابح ، والله عليم بسرائركم . أيها المكتفون بالصورة دون الأصل ، وبالشكل دون المعنى ، دعوا هذا البهتان ، فأنتم علة فى جسم الإسلام ، وأنتم قتام فوق مرآة الدين ، وأنتم نكبة من نكبات الوطن ، فاتركوا هذا الضلال ، واستقيموا على سواء السبيل ! ! . .

عن عبد الله بن زيد قال : مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته : يا راهب ، فلم يجبنى ؛ فناديته الثانية فلم يجبنى ، فناديته الثالثة فأشرف على وقال : يا هذا ! ما أنا براهب ، إنما الراهب من رهب الله فى سمائه ، وعظمه فى كبريائه ، وصبر على بلائه ، ورضى بقضائه ، وحمده على آلائه ، وشكره على نعمائه ، وتواضع لعظمته ، وذل لعزته ، واستسلم لقدرته ، وخضع لمهابته ، وفكر فى حسابه وعقابه ، فنهاره صائم ، وليله قائم ، قد أسهره ذكر النار ، ومسألة الجبار . فذلك هو الراهب .

أما أنا فكلب عقور ، حبست نفسى فى هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم ! . .

فقلت : يا راهب ، فما الذى قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه؟ فقال : ياأخى ، لم يقطع الخلق عن الله إلاحب الدنياوزينتها ، لأنها محل المعاصى والذنوب . والعاقل من رمى بها عن قلبه ، وتاب إلى الله من ذنبه . وأقبل على ما يقربه من ربه ! ! .

بحث للسيوطى

ثم نأتى فيما يلى على بحث للسيوطى عن السيدة زينب عنوانه « العجاجة الزرنبية[1] فى السلالة الزينبية » وهو بحث مخطوط ضمن مجموعة رقم ٧٢ مجاميع (تيمور) بدار الكتب المصرية ، ويقول فيه :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى :

مسألة : على بن أبى طالب رضى الله عنه رزق من الأولاد الذكور واحدا وعشرين ولداً ، ومن الإناث ثمانى عشرة ، على خلاف فى ذلك ، والذين أعقبوا من ولده الذكور خمسة . قال ابن سعد فى الطبقات : كان النسل من ولد على لخمسة : الحسن ، والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، والعباس بن الكلابية ، وعمر بن التغلبية .

مسألة : فاطمة الزهراء رضى الله عنها رزقت من الأولاد خمسة : الحسن ، والحسين ، ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب ؛ فأما المحسن فَدَرَجَ سَقْطا[2] ، وأما الحسن والحسين فأعقبا الكثير الطيب ،

---

(١) الزرنب : طيب أو شجر طيب الرائحة ، والزعفران .
(٢) أى مات عند ولادته .

وأَما أُم كلثوم فتزوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وولدت له زيداً ورقية ، وتزوجها بعده ابن عمها عون بن جعفر بن أبى طالب فمات معها ، ثم تزوجت بعده أخاه محمداً ، فمات معها ، ثم تزوجها بعده أخوه عبد الله بن جعفر فماتت عنده ، ولم تلد لأحد من الثلاثة شيئاً ، وأما زينب فتزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر ، فولدت علياً وعونا الأكبر وعباساً ومحمداً وأَم كلثوم .

مسألة : أَولاد زينب المذكورة من عبد الله بن جعفر موجودون بكثرة ، وتتكلم عليهم من عشرة أَوجه :

أحدها : أنهم من آل النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته بالإجماع ، لأن آله هم المؤمنون من بنى هاشم والمطلب .

وأخرج مسلم والنسائى عن زيد بن أرقم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال : أذكركم الله فى أَهل بيتى ثلاثا . فقيل لزيد بن أرقم : ومن أهل بيته ؟. فقال : أَهل بيته من حُرِمَ الصدقة بعده . قيل : ومن هم ؟ . قال : آل على ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس .

الثانى : أنهم من ذريته وأولاده بالإجماع ، وهذا المعنى أخصُّ من الذى قبله . قال البغدادى فى التهذيب : أولاد بنات الإنسان لاينسبون إليه وإن كانوا معدودين فى ذريته ، حتى لو أوصى لأولاد أولاد فلان يدخل فيه ولد البنت .

الثالث : أنهم هل يشاركون أولاد الحسن والحسين فى أنهم ينسبون إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؟. والجواب : لا . وهذا المعنى أخص من الوجه الذى قبله .

وقد فرق الفقهاء بين من يسمى ولداً للرجل وبين من ينسب إليه ؛ ولهذا قالوا : لو قال وقفت على أَولادى دخل ولد البنت . ولو قال : وقفت على من يُنسب إلى من أولادى : لم يدخل ولد البنت .

وقد ذكر الفقهاء من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه ينسب إليه أَولاد بناته ، ولم يذكروا مثل ذلك فى أولاد بنات بناته ، فالخصوصية للطبقة العليا فقط ، فأولاد فاطمة الأربعة ينسبون إليه ، وأولاد الحسن والحسين ينسبون إليها فينسبون إليه ؛ وأولاد زينب وأم كلثوم ينسبون إلى أبيهم عمر وعبد الله لا إلى الأم ؛ ولا إلى أبيها صلى الله عليه وسلم ، لأنهم أولاد بنت بنته لاأولاد بنته ، فجرى الأمر فيهم على قاعدة الشرع فى أن الولد يتبع أباه فى النسب لا أمه ، وإنما خرج أولاد فاطمة وحدها للخصوصية التى ورد الحديث بها، وهو مقصور على ذرية الحسن والحسين .

أخرج الحاكم فى المستدرك عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل بنى أم عصبة ، إلا ابنَىْ فاطمة ، أنا وليهما وعصبتهما .

وأخرج أبو يعلى فى مسنده عن فاطمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل بنى أم عصبة إلا ابنَىْ فاطمة ، أنا وليهما وعصبتهما .

فانظر إلى لفظ الحديث كيف خص الانتساب والتعصيب بالحسن والحسين دون أختيهما ، لأن أولاد أختيهما إنما ينسبون إلى آبائهم .

ولهذا جرى السلف والخلف على أن ابن الشريفة لا يكون شريفاً ، إذا لم يكن أبوه شريفاً ، ولو كانت الخصوصية عامة فى أولاد بناته وإن سفلن لكان ابن كل شريفة شريفاً تحرم عليه الصدقة وإن لم يكن أبوه كذلك ؛ وليس كذلك كما هو معلوم .

ولهذا حكم صلى الله عليه وسلم بذلك لابنى فاطمة دون غيرها من بناته ؛ لأن أُختها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعقب ذكراً حتى يكون كالحسن والحسين فى ذلك ، وإنما أَعقبت بنتاً ، وهى أُمامة بنت أَبى العاص بن الربيع ، فلم يحكم لها صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم مع وجودها فى زمنه ، فدل على أَن أولادها لا ينسبون إليه لأنها بنت بنته ، وأما هى فكانت تنسب إليه بناء على أن أولاد بناته ينسبون إليه ، ولو كان لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد ذكر لكان حكمه حكم الحسن والحسين فى أن ولده ينسبون إليه صلى الله عليه وسلم .

هذا تحرير القول فى هذه المسألة ، وقد خبط جماعة من أَهل العصر فى ذلك ، ولم يتكلموا فيه بعلم .

الوجه الرابع : أَنهم هل يُطلق عليهم «أَشراف» ؟ . والجواب : أَن اسم « الشريف » كان يطلق فى الصدر الأول على كل من كان من أَهل البيت ، سواء أكان حسنياً ، أَم حسينياً ، أَم علوياً من ذرية محمد بن الحنفية . وغيره من أَولاد على بن أَبى طالب ، أَم جعفرياً ، أم عقيلياً أم عباسياً .

ولهذا تجد تاريخ الحافظ الذهبى مشحوناً فى التراجم بذلك القول : الشريف العباسى ، الشريف العقيلى ، الشريف الجعفرى ، الشريف الزينبى .

فلما ولى الخلافة الفاطميون بمصر قصروا اسم الشريف على ذرية الحسن والحسين فقط ، فاستمر ذلك بمصر إلى الآن .

وقال الحافظ ابن حجر فى كتاب « الألقاب » : الشريف ببغداد لقب لكل عباسى ، وبمصر لقب لكل علوى ، انتهى .

ولا شك أن المصطلح القديم أولى ، وهو إطلاقه على كل علوى وجعفرى ، وعقيلى وعباسى ، كما صنعه الذهبى ، وكما أشار إليه الماوردى فى « الأحكام السلطانية » من أصحابنا ، والقاضى أَبو يعلى ابن الفراء من الحنابلة كلاهما ، ونحوه قول ابن مالك فى الألفية :

« وآله المستكملين الشرفا » . فلا ريب أنه يطلق على ذرية زينب المذكورين « أشراف » .

وكم أطلق الذهبي فى تاريخه فى كثير من التراجم قوله « الشريف الزينبي » .

الوجه الخامس : وقد يقال على مصطلح أهل مصر : « الشريف » أنواع : عام لجميع أهل البيت ، وخاص بالذرية ، فيدخل فيه الزينبية ، وأخص منه شريف النسبة . وهو يختص بذرية الحسن والحسين .

الوجه السادس : أنهم يحرم عليهم الصدقة بالإجماع ، لأن بنى جعفر من الآل

الوجه السابع : أنهم يستحقون من وقف « بركة الحبش » بالإجماع ، لأن بركة الحبش لم توقف على أولاد الحسن والحسين خاصة ، بل وقفت نصفين : النصف الأول على الأشراف ، وهم أولاد الحسن والحسين ، والنصف الثانى على الطالبيين وهم ذرية على بن أبى طالب من محمد بن الحنفية وإخوته ، وذرية جعفر ابن أبى طالب ، وذرية عقيل بن أبى طالب .

وثبت هذا الوقف على هذا الوجه على قاضى القضاة بدر الدين يوسف البخارى فى ثانى عشر ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة ، ثم اتصل ثبوته على شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام فى

تاسع عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة . ثم اتصل ثبوته على قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة . ذكر ذلك ابن المتوج فى كتابه « إيقاظ المتأمل » .

الوجه الثامن : أنهم هل يلبسون العلامة الخضراء أو لا ؟ .

الجواب أَن هذه العلامة ليس لها أَصل فى الشرع ولا فى السنة ، ولا كانت فى الزمن القديم ، وإنما حدثت سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، بأمر الملك الأشرف شعبان بن حسين ، وقال فى ذلك جماعة من الشعراء ما يطول ذكره . منه قول أبى عبد الله ابن جابر الأندلسى الأعمى صاحب شرح الألفية المشهور بالأعمى والبصير :

جعلوا لأبناء الرسول علامةً إن العلامة شأنُ من لم يشهر
نور النبوة فى وسيم وجوههم يغنى الشريف عن الطراز الأشهر!

وقال الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم الدمشقى :

أطراف تيجان أتت من سندس
خُضْرٍ بأعلام على الأشراف
« والأشرف السلطان » خصهم بها
شرفاً ليعرفهم من الأطراف

وحظ الفقيه فى ذلك إذا سئل أن يقول : لُبْس هذه العلامة بدعة مباحة ، لا يمنع منها من أَرادها من شريف وغيره ، ولا يؤمر بها من تركها من شريف وغيره .

والمنع منها لأحد من الناس كائنا من كان ليس أمراً شرعياً ، لأن الناس مضبوطون بأنسابهم الثابتة ، وليس لبس العلامة مما ورد به الشرع ، فيتبع إباحةً ومنعا أقصى ما في الباب أنه أحدث التميز بها لهؤلاء عن غيرهم .

فمن الجائز أن يخص ذلك بخصوص الأبناء المنتسبين إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم ذرية الحسن والحسين .

ومن الجائز أن يعمم فيهم وفي كل ذريته وإن لم ينسبوا إليه كالزينبية .

ومن الجائز أن يعمم في كل أهل البيت ، كما في العلوية والجعفرية والعقيلية ، كلٌّ جائز شرعا .

وقد يُستأنس فيها بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ[1] » .

فقد استدل بها بعض العلماء على تخصيص أهل العلم بلباس يختصون به ، من تطويل الأكمام ، وإدارة الطيلسان ، ونحو ذلك ، ليعرفوا فيجلوا تكريماً للعلم ، وهذا وجه حسن ، والله أعلم .

الوجه التاسع : هل يدخلون في الوصية على الأشراف ؟ .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٩ .

الوجه العاشر : هل يدخلون فى الوقف على الأشراف ؟ .

والجواب : أنه إن وجد فى كلام الموصى والواقف نص يقتضى دخولهم وخروجهم اتبع ،وإن لم يوجد فيه ما يدل على هذا فقاعدة الفقيه أن الوصايا والأوقاف تتنزل على عرف البلد ، وعُرف مصر من عهد الخلفاء الفاطميين إلى الآن أن الشريف لقب لكل حسنى وحسينى خاصة ، فلا يدخلون على مقتضى هذا العرف ، وإنما قدمت دخولهم فى وقف « بركة الحبش » لأن واقفها نص فى وقفه على ذلك ، حيث أوقف على ذلك ، فإنه وقف نصفها على الأشراف ونصفها على الطالبيين .

تم ذلك بحمد لله وعونه ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين » .

ضريحها

قال المؤرخون : ودفنت السيدة زينب رضى الله عنها فى دار مسلمة بن مخلد بالحمراء القصوى فى بدء فسطاط مصر ، ثم هيئ لها ضريحها الدائم الذى توجد فيه الآن كما يروون ، وكان ضريح السيدة زينب يقع فى الجهة البحرية من دار مسلمة ، ويشرف على الخليج .

ثم اندثرت الدار إلا الضريح ، فإنه كان مصونًا يزار ، ويجدد كلما تهدم ، وتتابعت الدول وتوالت الأمراء ، وكل منهم حَفِيٌّ مهتم بخدمة الضريح ، مع كثير من أفاضل أهل العلم والولاية ، وفى مقدمتهم العارف بالله السيد محمد أبو المجد القرشى الحسينى المعروف بالشيخ « العتريس » خادم الضريح ، وهو أخو السيد إبراهيم الدسوقى ؛ وقد توفى سنة ٦٧٦ هـ ، وهو مدفون بالجهة البحرية من ضريح السيدة زينب ؛ ومن شعر الشيخ العتريس فى التصوف قوله :

سقانى محبوبى بكأس المحبة
فتهت على العشاق سكراً بخلوتى
ولاح لنا نورُ الجلالة لو أضاء لصُمِّ الجبال الراسيات لدُكَّت

وكنت أنا الساقى لمن كان حاضراً

أطوف عليهم كرةً بعد كرة

تجلى لنا المحبوب فى كل وجهة فشاهدتُه فى كل معنى وصورة

وهذا شعر يذكرنا من بُعد بقول الحق عز من قائل : « وَلِلَّهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ، إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (1) » . وقد يجد فيه بعضهم نسمات من فكرة « وحدة الوجود » ! .

***

وكان الضريح الزينبى منذ القدم مزدانا بالقباب والمحاريب والنقوش ، وقد أجريت فيه إصلاحات فى عهد المعز لدين الله الفاطمى ، والمستنصر الفاطمى ، والملك العادل بن أيوب ، والسلطان سليمان خان بن السلطان سليم . والأمير عبد الرحمن كتخدا ، وبعض المماليك ، ومحمد على ، وعباس ، وسعيد ، وتوفيق ، وغير أولئك كثير من الملوك والأمراء والوزراء الذين كانوا يستجيبون لرغبات الجماهير ، بالعناية والاهتمام بأمر ذلك الضريح ، وما يتبعه من حرم ومسجد .

---

(1) سورة البقرة آية 115 .

خاتمة

أما بعد ، فهذه نفحات من سيرة البتول الطاهرة السيدة زينب رضى الله عنها ، كتبتها منذ عهد مديد وأمد بعيد مع كثرة أشغال وحيرة بال ، لأهتدى بها ويهتدى بها من يريد ، وما بى نزعة إلى تجديد أو تحطيم ، وإنما هو نور الحقيقة أتلمسه ، لأمشى على ضوء مشكاته ، ولأتحرز ما استطعت من عثرات الريبة والشك ، وأباطيل الزعم والوهم ، وترهات الأقاويل :

وما لى إلا آل أحمد شيعة ومالى إلا مذهب الحق مذهب!

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

فهرس

الموضوع | الصفحة

مطابع الدار القومية للطباعة والنشر



مطابع الدار القومية للطباعة والنشر
ت : ٤١٠١٢ ـ ٤٠٧٥٣ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤٠٥٨٨

العدد ٦٩ الثمن ١٦ قرشا